ولم يعرفها

"ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر" (مت١:٢٥). هي آية أعيت عقول الكثيرين فاستغلوها سنداً للتشكيك في بتولية العذراء. أما القديس كيرلس الكبير، الذي تربطه بالسيدة العذراء علاقة وطيدة، فقد علق ببراعة على هذه الآية في ميمر له على نياحة السيدة العذراء قائلاً: "حقاً قال عنكِ الإنجيلي الطاهر أيتها العذراء أن يوسف لم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعي اسمه يسوع **أي أنه لم يعرف مقدار مجدك وكرامتك والنعمة التي تحليتِ بها إلا بعد ميلادك السيد له المجد ورأى الملائكة صاعدة ونازلة تسبح المولود منكِ قائلة المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة، والرب دعاكِ بوالدته الحبيبة**". يعني ذلك أن القديس كيرلس الكبير فسر كلمة "يعرفها" بمعناها البسيط، أي لم يعرف مقدار كرامتها.

يوجد في الحقيقة نص رائع في ميمر آخر على "بشارة الملاك جبرائيل للسيدة العذراء" عثر عليه البابا كيرلس الخامس في دير المحرق وقام بطباعته سنة ١٩٠٢م في كتاب "ميامر وعجائب السيدة العذراء مريم". هذا النص يصف ببراعة عجيبة حال يوسف النجار لما اكتشف حملها فيقول: "وعندما وقع نظره عليها وإذا هي حبلى تعجب يوسف واستغرب ذلك الأمر ووقع في دهشة وتاه في بحور الأفكار وهو ما بين مصدق ومكذب. ثم لما فاق من دهشته والتفت وتأمل وجد أن أيام حملها تقدمت وقد ظهر حملها للعيان. فقال لها يا مريم لم يسعني أن أمكث هنا وأحتمل العار من بني إسرائيل ومن الكهنة ومن شيوخ الشعب، وكاد يلطم على وجهه وبكي بكاء مراً وينتحب ويحزن ويندب سوء حظه ويقول ويلي أنا الشقي كيف يكون حالي وماذا أقول، نعم إني سأصير عبرة في بني إسرائيل وبماذا أجاوب وأي عذر لي وأنتِ معي في منزلي وتسليمي".

والآن من السهل أن نضع النصين السابقين بجانب بعضهما البعض لندرك أن ظهور الملاك ليوسف في الحلم ليطمئنه من جهة العذراء لم يكن كافياً ليستوعب مقدار كرامتها، بل أن ميلاد المسيح منها وما صحبه من عجائب كان هو وحده الحدث الجوهري الذي أضاء بصيرة يوسف الروحية فانفتحت على غنى كرامة ومجد العذراء. بالتالي، كل من يحاول تكريم العذراء لشخصها وفضائلها بمنأى عن ربط كرامتها بميلاد المسيح منها فإنه لابد وأن يقع فيما وقع فيه يوسف من شك وحيرة.

لقد تشبهت السيدة العذراء بابنها وتحولت إلى تلك الصورة عينها. فكما صار ذاك، الذي لم يعرف خطية، خطية من أجلنا هكذا صار حبل تلك التي لم تعرف رجلاً بالسيد المسيح صليبها الذي علقت عليه بلا خطية منها. وكما

تمجد السيد المسيح في أعين تلاميذه بقيامته فانفتحت أعينهم وعرفوه، هكذا صارت حادثة ميلاد المسيح من العذراء قيامةً لها حيث تمجدت في عيني يوسف الذي انفتحت عندئذ عيناه "فعرفها". بالتالي يكون لقب "والدة الإله" هو مجد قيامة العذراء!!